مذكرات هـــــرة

١ — فاقد الشيء لا يعطيه

من الأمثلة التى تدور على ألسنة الأزهريين وفى كتبهم كثيراً قولهم : فاقد الشيء لا يعطيه ولقد أعجبت بهذا المثل مع قرب مفهومه وسذاجة تعبيره ، ولعل إعجابى به عائد إلى التفاوت بين مايشير إليه هذا المثل وما تسير عليه حياة الناس.

ولو واجهت أحداً بهذا المثل وطلبت إليه إنكار صدقه والتدليل على كذبه لاعتبرك مأفوناً أو ساخراً به — واطلق عليك ضحكه عريضة ! . ولكنك لو ذهبت تستقرىء حياته وتتأمل تصرفاته ، لربما وجدت بها خلاف ما يوحى به هذا المثل .

لأننا لا نسير فى حياتنا حسب ما يقتضيه العقل ويوجبه المنطق ، بل ندع لغرائزنا حرية السيطرة على أعمالنا وأقوالنا ؛ تتصرف بها كيف تشاء .

وللغرائز والشهوات اهداف لا تناسب العقل ، ومن شأنها وضع الرغبات الشخصية فوق كل اعتبار ، فحيثما أطلت المنفعة فهنالك الحق كله والصواب كله . ولا عبره بتأنيب الضمير ولوم العقل ! .

ومن الناس من يطلب العلم من الجهول ، والرشد من الضلال ، والوطنية ممن لا وطنيه له ، وهو — فى حقيقة أمره — لا تهمه هذه الأشياء فى قليل أو كثير ، وإنما غايته أن يصيب الخير لنفسه فقط ، فلا تعجب إذا رأيته يستأسد فى الدفاع عن أباطيل سافره أو قضايا خاسره فإن وراءها مصلحته !

وهناك من يصدق فى طلب الأشياء من مصادرها ، ويجد فى الطلب ولكنه مأخوذ بالدعايات المضللة ، قد اشتبهت عليه مسالك الحق فحاد عن السبيل وأنشأ يخرب بيته بيديه وهو يظن أنه يحسن صنعاً ، ويصعب عليك رده عن غيه وهو فى سورة الحماس ونشوة الاستبسال . واكثر ما يكون هذا وأمثاله على شيء كثيراً من سلامه النيه وشيء قليل من التجارب ، وهدايتهم موكوله إلى تذكيرهم دائماً بما هم عليه ووضع الأدلة الصحيحة والبراهين الشاهدة نصب أعينهم فهم بحاجة إلى الرعاية والحماية دائماً .

وقل من الناس من يسترشد بعقله ، ويأخذ الأشياء من مصادرها ، فلا يعاند ضميره إذا أشار ، ولا يخالف منطقه إذا حكم ، ولا يستنكف أن يعترف بخطأ وقع فيه ، فهدفه دائماً إرادة الخير لنفسه وللناس أجمعين .

فاقد الشيء لا يعطيه : من الأمثلة التى نقولها بألسنتنا ونخالفها بأعمالنا — ولو عقلناها حقاً ! لما ضاع لنا حق وخفى علينا صواب ! .

٢ — خداع الناس

قرأت — ولا أدرى أين ؟ مثلاً يقول : تستطيع أن تخدع الناس مرة واحدة وتخدع بعض الناس أكثر من مرة ، ولكنك لن تستطيع أن تخدع كل الناس فى كل مرة أو كما قال ، فلست أحفظ المثل بالنص ، لأنى شخص من سواد الشعب ، والشعوب — كما يعلم القارىء أو كما لا يعلم — ضعيفة الذاكرة إلى حد بعيد ، ولولا هذا الضعف لما سنحت الفرصة لمن يسيء السيرة مرة أن يكرر إساءته إليها مرات دون خجل أو وجل .

وبعد فالمثل السابق ، قد صور علاقة المخادع بالمجتمع أدق تصوير ، يكاد يلمسه كل من حكمت عليه صروف حياته أن يختلط بالمخادعين ، ولكن بعض الناس — كما تصفه أفعاله — لا يعير هذا المثل التفاتاً ، وإن حفظه عن ظهر قلب وشاهد حقيقة على كل درب !

وكأن علاقتة بالناس قائمة كلها على نقض هذا المثل فهو يخادع الناس فى كل مرة ، ويخدعه الناس فى كل مرة ولكنه لا يقتنع ولا يرتدع ، ولا يزال يفتن بالخداع ويفتن الناس بكشف القناع حتى تبور تجارته وتكسد بضاعته فيصبح سخرية المجالس وهزأة الأندية .

ومن المحقق أن المرء لا يبدأ بخداع الناس حتى ينتهى من خداع نفسه فإذا أساس له قيادها شرع يجرب فى الناس ، ومن ثم يتزيا بالعلم ويتدرع بالحلم وهو للجهل صنم وللحماقة علم ، ثم يخب ويضع فى ضلاله ! ويغالط الناس فى أفعاله وأقواله .

(البقية على ص ٢٥)